مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية
Eissn : …-….. Issn : 2353-043X
المجلد 06/ العـدد 02: (2019)، ص:7 - 22

قيم التسامح في التوجيهات القرآنية و السنة النبوية

- الدكتورة: نادية الوافي[1]
[1]جامعة محمد الخامس كلية الآداب الرباط المغرب

تمهيد:

لقد خاض أتباع الأديان تاريخا طويلا من العداوات وعاشوا تحت سيطرة جغرافية تخيلية، وألصق بعضهم ببعض مئات الصور النمطية التي زرعت الكراهية والعداوة بينهم، ولازالت العلاقات الإسلامية مع أهل الكتاب مؤطرة بالتوجس والعداء والتكفير، والسؤال الجوهري في هذا المقال هو هل العداء استجابة لمنطوق النص المقدس أم هو استجابة لتأويلات مشحونة بالطائفية والانغلاق واللاإنسانية؟.

وسأحاول جاهدة في هذا المقال التأكيد على أن التسامح أصيل في نصوص الكتب المقدسة وتدعو إليه وتحث عليه جميع هذه النصوص، وسنقف على ذلك من خلال القران الكريم والسنة النبوية كنموذجا؟

المؤلف المرسل: الدكتورة: نادية الوافي

أولا : التسامح في التوجيهات القرآنية

إذا كان الإسلام دين سلام وعقيدة محبة ووئام بين جميع الناس، مسلمين وغير مسلمين، فإنه أيضا نظام اجتماعي يستهدف تحقيق الأمن المجتمعي الشامل، الذي يرمي إلى أن يستظل بظلاله كل من يعيش داخل المجتمع من مسلمين وأهل ذمة وغيرهم، وهذا الأمن المجتمعي هو الذي يجمع كل هؤلاء أناسا متعارفين

المنارة للاستشارات

متحابين [يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ][1].

إنه حتى في حالة الخصومة والشنآن يبقي الإسلام أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة وسماحة الخلق، قال تعالى :[وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ][2]، وقال سبحانه: [عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ. لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ][3].

فهذه بعض من تلك القواعد السامية التي جعلها الإسلام أصولا لمعاملة غير المسلمين، وهي أعدل القواعد التي تتفق مع روح هذا الدين وسماحته، وهي أساس شريعته الدولية التي تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعا هي الحالة الثابتة لا يغيرها إلا وقوع الاعتداء الحربي عليه وضرورة رده.

ومن التوجيهات الإسلامية التي تحث على السماحة ومقابلة الشر بالخير والسيئة بالحسنة قوله تعالى :[ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ

[1]- سورة الحجرات، الآية : 13
[2]- سورة المائدة، الآية :8
[3]- سورة الممتحنة، الآية :7-8.

المنارة للاستشارات

بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [4]، وقوله سبحانه :[ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ] [5].

ومن تلك التوجيهات أيضا أن يكون جدال الآخر بالتي هي أحسن، قال تعالى:[ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ] [6].

ووجه الإسلام إلى مقابلة النوايا السيئة والحقد الدفين بالعفو والصفح، قال تعالى : [وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ] [7].

أما سيرة الرسول **"صلى الله عليه وسلم"** وصحابته الكرام فتعد ترجمة واقعية لتلك التوجيهات القرآنية، حيث طبعت حياتهم بمواجهة الأذى بالصبر والحلم والثبات، أما بعد الهجرة النبوية فكان الحرص على أشده لكي تتحقق داخل المدينة المنورة ملامح الأمن المجتمعي الشامل الذي يؤنس لشيوع أجواء التسامح والتساكن السلمي. ولذلك آخى الرسول **"صلى الله عليه وسلم"** بين المهاجرين والأنصار، وعقد معاهدات كثيرة مع أعدائه، حيث عاهد **"صلى الله**

---

[4]- سورة المؤمنون، الآية :96.
[5]- سورة فصلت، الآية : 34.
[6]- سورة النحل، الآية : 125.
[7]- سورة البقرة، الآية : 109.

المنارة للاستشارات

عليه وسلم" أهل الكتاب من يهود المدينة وما حولها على السلم والتعاون، وعاهد المشركين في الحديبية على السلم والأمان، وتساهل معهم إلى منتهى التساهل والتسامح، لكن عن قوة وعزة لا عن ضعف وذلة، بل تجلت روح التسامح عند النبي **"صلى الله عليه وسلم"** حتى في الحرب، فقد قال لهم أيضا : <<من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن>>[8].

والإسلام حين يحث على التسامح مع المخالفين، ومن ضمنهم أهل الكتاب، يمنع المسلمين منعا جازما من اتخاذ أولياء منهم يتعاونون معهم، فالتسامح شيء واتخاذهم أعداء الإسلام أولياء شيء آخر، قال تعالى : [**لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ**][9].

ومن سماحة الإسلام أنه حين يكشف للمسلمين عما تضمره لهم نفوس أعدائهم من الحقد والبغض، لا يأمرهم ولا يحرضهم على مقابلة الغل والدس والكراهية بمثلها، وإنما يحذر المسلمين ويبصرهم بحقيقة العدو، وينبههم إلى الخطر الذي يهدد الأمن المجتمعي لحماية المسلمين، ومع ذلك يحث على الصفح والعفو والجنوح إلى السلم وعدم اللجوء إلى العنف إلا عند الضرورة، كما يربي المؤمنين على أن يعاملوا الناس جميعا بسماحة الإسلام؛ منعا للفتنة وإزالة للتحديات التي تعيق استتباب الأمن والسلام والاستقرار.

وفي إطار المنهج الواقعي لتفاعل مبدأ التسامح مع التعددية في الأعراق والأجناس والمعتقدات واللغات والثقافات والألوان والسياسات، نرى في المنظار القرآني أن الإسلام :***أولاً*** : حقق هذا التفاعل والانسجام بين التسامح والتعدد في مجالات كثيرة، منها تجاوز هذه الخلافات، كما وجَّه إليه القرآن المجيد في قوله

---

[8]- رواه مسلم.

[9]- سورة آل عمران، الآية : 28.

المنارة للاستشارات

تعالى: [وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ. وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ] [10] علماً بأن الاختلاف في الرأي أو الفكر أو الاعتقاد لا يعكر صفو العلاقات العامة.

ثم تجاوز القرآن الكريم ظاهرة التعدد إلى بناء واقع إيجابي، وهو: النقلة النوعية إلى أفق التعارف والتعاون والتآلف، لتحقيق المصالح والمكاسب المعيشية، وتبادل المنافع، وإثراء الحياة والنهوض بها في قول الله سبحانه: [يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ] [11].

ومن أجلى مظاهر أو حقائق التعددية : الاعتراف بحق المواطنة لغير المسلمين

في دولة الإسلام، وتحقيق الاندماج مع الأمة، وتوفير التعايش الودي والسياسي والاقتصادي بين المسلمين وغيرهم، وظل هذا النهج سائداً في تعايش غير المسلمين مع المسلمين على مدى القرون المتلاحقة الأربعة عشر قرناً ونيّف (ربع قرن في عصرنا إذا لاحظنا التوقيت الهجري).

وكانت المساواة بين المسلمين وغيرهم في الحقوق أساس المواطنة مع احتفاظ كل فريق بالتنوع الديني والاختلاف العقدي، على نقيض ما نجده في الدول العلمانية المعاصرة.

---

[10]- سورة هود، الآية : 117 – 119.

[11]- سورة الحجرات، الآية : 13.

المنارة للاستشارات

ثانياً : أقام الإسلام أصول التسامح على قاعدة صلبة وقوية وهي الحوار البناء الذي يعتمد على الاحترام المتبادل بين أطراف الحوار، واعتراف كل جانب بالآخر، وتحكيم العقل المجرد والفكر المنفتح، والحرص على الحقيقة، والترفع عن نزاع أو صراع الحضارات، وعن تعصب الأديان، وتشنج المتدينين، وهذا واضح في آيات قرآنية ثلاث :

الأولى : قوله تعالى:[ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ] [12] وهي الآية الداعية إلى لطف الخطاب، وأسلوب النقاش، ثم التفويض لله في إعلان الحق والحقيقة.

والآية الثانية الداعية إلى الحوار القائم على منطلق الحقيقة والتساوي بين المتحاورين الذي هو أساس الاحتكام في قضايا الاختلاف، وهي قول الله تعالى :[قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ] [13] أي إن الإقرار بوحدة الإله، ورفض تعدد الأرباب هو الأساس المشترك الذي ينبغي الالتزام به، وللوصول في نهاية المطاف إليه، دون أي اختلاجات أو مباعدات، أو طمس لهذه الحقيقة.

---

[12]- سورة النحل، الآية : 125.

[13]- سورة آل عمران، الآية : 64.

المنارة للاستشارات

والآية الثالثة

ترسم منهج الحوار وأسلوب النقاش الديني الذي يتبعه كل نقاش في مقدَّرات الشعوب والأمم والحريات والحقوق والواجبات وهي قول الله عز وجل: [وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ][14].

ثانيا: التسامح في السنة النبوية

فإن استعصى الوصول إلى الوفاق، وتباعد المتحاوران، يحسم الحوار بإعلان الموقف النهائي في تبين الحق من الضلال، والخطأ من الصواب، وذلك بترداد مدلول الآية الكريمة وهي :[قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ][15] فهي فاصلة الحوار والنقاش، وتبيُّن المواقف بعد التأمل والتفكر.

ولكن التسامح الإسلامي أو السماحة الذاتية في الإسلام تتطلب أمرين :

[14]- سورة العنكبوت، الآية : 46.

[15]- سورة سبأ، الآية : 24.

المنارة للاستشارات

الأول : الاعتراف بالآخر وهذا يتبعه الاعتراف بالتعددية السياسية والمذهبية والعرقية والدينية والثقافية، ويتطلب أيضاً اللجوء إلى الحوار الحضاري البنَّاء من غير أي استعلاء أو تشنج، أو صراع بين الحضارات، أو الأديان أو المذاهب العقدية، وهذا مقرر في صلب تعاليم الإسلام، ومفقود في خطط الغرب.

الثاني : اجتناب اللجوء إلى العدوان أو الحروب لحل المشكلات، فإن ذلك يولِّد الأحقاد والعداوات ويعقِّد نظام العلاقات العامة، ويمهد لاستعلاء النزعات القومية والعرقية، والأهواء القاتلة، وإشاعة الظلم والقسوة والتصرفات الهمجية الوحشية.

إن التسامح الديني- بين الطوائف والجماعات والدول - الذي تبناه النبي صلى الله عليه وسلم يعد من أهم مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم.. وقد كان صلى الله عليه وسلم نموذجًا فذا في التسامح الديني. فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يُكره اليهود و لا النصارى على قبول دينه، لأنهم أهل الكتاب. بل أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإكرام علماء أهل الكتاب كالبطاركة والرهبان وخدمهم وحرم صلى الله عليه وسلم قتل الرهبان - على الخصوص - حتى في حال الحرب.

التسامح عند سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما يقول الباحث الفرنسي مارسيل بوازار <<هو واجب ديني وأمر شرعي>>[16].

ويقول الفيلسوف الألماني الشهير **"غوته"** في كتابه (أخلاق المسلمين وعاداتهم): <<ولا شك أن التسامح الأكبر أمام اعتداء أصحاب الديانات الأخرى، وأمام إرهاصات وتخريفات اللادينيين، التسامح بمعناه الإلهي، غرسه رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم في نفوس المسلمين، فقد كان محمد صلى الله عليه وسلم المتسامح الأكبر، ولم يتخذ رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم موقفاً صعباً ضد كل الذين كانوا يعتدون عليه بالسب أو بمد الأيدي أو بعرقلة الطريق وما

[16]- مارسيل بوزار : إنسانية الإسلام ، ص : 183

المنارة للاستشارات

شابه ذلك، فقد كان متسامحاً؛ فتبعه أصحابه وتبعه المسلمون، وكانت وما زالت صفة التسامح هي إحدى المميزات والسمات الراقية للدين الإسلامي، وللحق أقول : إن تسامح المسلم ليس من ضعف؛ ولكن المسلم يتسامح مع اعتزازه بدينه، وتمسكه بعقيدته»[17]..

وتتحدث لورافيشيا فاغليري عن مظهر التسامح الديني عند النبي صلى الله عليه وسلم، فتقول : «كان محمد صلى الله عليه وسلم المتمسك دائمًا بالمبادئ الإلهية شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة. لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعًا الأناة دائمًا اعتقادًا منه بأن الزمن سوف يتم عمله الهادف إلى هدايتهم وإخراجهم من الظلام إلى النور.. لقد عرف جيدًا أن الله لابد أن يدخل آخر الأمر إلى القلب البشري»[18]

إن سياسة التسامح الديني التي انتهجها محمد صلى الله عليه وسلم تجاه أصحاب الديانات الأخرى حظيت باحترام وتقدير المفكرين الغرب فعقدوا المقارنة بين تسامح الإسلام وتعصب الصليبيين.. يقول القس الألماني ميشون : «إن الإسلام الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وهو الذي أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب وحرم قتل الرهبان -على الخصوص- لعكوفهم على العبادات ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس ..وقد ذبح الصليبيون المسلمين و حرقوا اليهود عندما دخلوها»[19].

ويضيف الكاتب نفسه في موضع آخر، متحدثاً عن تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية، وكيف أن المسيحيين تعلموا الكثير من المسلمين في التسامح وحسن المعاملة، يقول : «وإنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح

---

[17]- محمد عثمان **"في الآداب العالمية المنصفة"**، ص : 20.

[18]- لورافيشيا فاغليري : دفاع عن الإسلام ، ص : 73.

[19]- ميشون : **"تاريخ الحروب الصليبية"**، نقلا عن عفيف عبد الفتاح طبارة، ص : 383

المنارة للاستشارات

التعامل وفضائل حسن المعاملة، وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم، كل ذلك بفضل تعاليم نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم<< [20].

1 – دستور المدينة نموذجًا :

لقد كان التعايش بين مختلف الطوائف والفصائل في الدولة الإسلامية الأولى هو أحد أهداف الدستور الإسلامي الذي وضعه النبي صلى الله عليه وسلم عقب هجرته إلى المدينة، والذي ضمن تنظيم العلاقات ما بين المسلمين من جهة، وأصحاب الديانات الأخرى من جهة أخرى، في إطار من التسامح الديني والحرية الدينية في ممارسة الشعائر، ويقول في ذلك

<<كونستانس جيورجيو>> [21] :<<وقد حوى هذا الدستور اثنين وخمسين بنداً، كلها من رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم . خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى،و لا سيما اليهود و عبادة الاوثان.

وقد دون هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم، ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء. وضع هذا الدستور في السنة الأولى للهجرة، أي عام 623م. ولكن في حال مهاجمة المدينة من قبل عدو عليهم أن يتحدوا لمجابهته وطرده>>[22] .

وقد نص دستور المدينة على حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر فجاء فيه :

وجاء في هذا الأصل : <<وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأَثِم فإنه لا يوتغ [أي يُهلك] إلا نفسه وأهل بيته>>[23] .

---

[20]- ميشون : سياحة دينية في الشرق، ص : 31.

[21]- المستشرق والوزير الروماني كونستانس جيورجيو (المولود عام 1916) صاحب كتاب : **"نظر ة جديدة في سيرة رسول الله"**

[22]- كونستانس جيورجيو : **"نظرة جديدة في سيرة رسول الله"**، ص : 192 وما بعدها

[23]- ابن كثير: **"السيرة النبوية"** 2/ 322، ابن هشام : **"السيرة النبوية"** 1/ 503

المنارة للاستشارات

ونص على الاستقلال المالي لكل طائفة، فكان من ضمن مواد دستور المدينة: <<وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم>>[24]

فمع وجوب التعاون المالي بين جميع طوائف الدولة لرد أي عدوان خارجي، فإن لكل طائفة استقلالها المالي عن غيرها من الطوائف.

كما نص الدستور على النصح والبر بين المسلمين وأهل الكتاب:

فيقول الدستور: <<وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم>>[25]

فالأصل في العلاقة بين جميع طوائف الدولة –مهما اختلفت معتقداتهم– هو النصح المتبادل، والنصيحة التي تنفع البلاد والعباد، والبر والخير والصلة بين هذه الطوائف.

2 – استقبال الوفود النصرانية :

وتجلت مظاهر التسامح الديني في عهد النبي صلى الله عليه وسلم عام الوفود حين استقبل وفوداً نصرانية وبعث برسالة إلى أسقف نجران.

ومن ثم يتحدث **"كونستانس جيورجيو"** عن أوضاع أصحاب الديانات السماوية

في ظل الحكم الإسلامي فيقول[26] : <<مع أن الإسلام عم الجزيرة كلها في السنة التاسعة فإن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يُكره اليهود و لا النصارى على قبول دينه، لأنهم أهل الكتاب. و قد جاء في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلى أبي الحارث أسقف نجران أن وضع المسيحيين في الجزيرة بعد الإسلام تحسن كثيراً، يقول في الرسالة : بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي، إلى الأسقف أبي الحارث، وأساقفة نجران، وكهنتهم، ومن تبعهم، ورهبانهم : إن لهم ما تحت أيديهم، من قليل أو كثير من بيَعهم وصلواتهم، ورهبانيتهم، وجوار الله ورسوله، لا يُغيّر أُسقف من أُسقفيتّه، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته. ولا يُغير

---

[24]- ابن سيد الناس: **"عيون الأثر"** 261/1 وابن كثير: **"السيرة النبوية"** 2/ 322، ابن هشام: **"السيرة النبوية"** 1/ 503

[25]- ابن سيد الناس: 1/ 503

[26]- كونستانس جيورجيو : **"نظرة جديدة في سيرة رسول الله"**، ص : 371، 372.

المنارة للاستشارات

حق من حقوقهم ولا سلطانهم، ولا شيء مما كانوا عليه . (على ذلك جوار الله ورسوله أبدًا)، ما نصحوا واصطلحوا فيما عليهم، غير مثقَلين بظلم ولا ظالمين>>[27]...

يقول جيورجيو معلقًا : <<تشير هذه الرسالة إلى أن المسيحيين (وكذلك اليهود) في الجزيرة أحرار في أداء شعائرهم، ولن يزاحمهم من المسلمين مزاحم . وقد قدْم في السنة التاسعة وفد من مسيحي نجران يرأسهم أبو الحارث الأسقف الأكبر، وعبد المسيح الأسقف، والأيهم رئيس القافلة، وحين أرادوا الدخول على النبي صلى الله عليه وسلم ارتادوا ألبستهم الدينية الرسمية الكاملة... وبعد أن زاروا النبي صلى الله عليه وسلم سألوه أن يسمح لهم بأداء شعائرهم فطلب منهم أن يؤدوا صلواتهم في مسجد المدينة، فدخلوا واتجهوا نحو بيت المقدس، و تعبدوا هناك. ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحترم النصارى احتراماً خاصاً، لأن القرآن ذكرهم وأكرمهم . وقد أشار الله تعالى إلى هذه النقطة في محكم كتابه :[لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ][28]، ويقول في الآية التي

[27]- محمد حميد الله : **"الوثائق السياسية"**، ص 179.

[28] - سورة المائدة، الآية : 82.

المنارة للاستشارات

بعدها: [وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ] [29] .. >> [30]

ويعلق آتيين دينيه على ما فعله النبي ρ مع وفد نجران النصراني قائلاً : << .. من الحقائق التاريخية أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى أهل (نجران) المسيحيين نصف مسجده ليقيموا فيه شعائرهم الدينية. وها نحن أولاً نرى المسلمين إذا بشروا بدينهم فإنهم لا يفعلون مثل ما يفعل المسيحيين في الدعوى إلى دينهم، ولا يتبعون تلك الطرق المستغربة التي لا تتحملها النفس والتي لا يحبها الذوق السليم. وقد أنصف القس ميثون الحقيقة في كتابه (سياحة دينية في الشرق) حيث يقول:إنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم >>[31] .

3 – الحرية في الاعتقاد وممارسة الشعائر

يقول جيمس متشنر : <<القرآن صريح في تأييده لحرية العقيدة، والدليل قوي على أن الإسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان، ما دام أهلها يحسنون المعاملة، وقد حرص محمد صلى الله عليه وسلم على تلقين المسلمين التعاون مع أهل الكتاب، أي اليهود والنصارى، ولاشك أن حروباً نشبت بين المسلمين وغيرهم في بعض الأحيان، وكان سبب ذلك أن أهل هذه الديانات الأخرى أصروا على القتال، وقد قطع الرهبان بأن أهل الكتاب كانوا يُعاملون معاملة طيبة وكانوا أحراراً في عبادتهم ، ولعل مما يقطع بصحة ذلك، الكتاب الذي أرسله البطريرك النسطوري إيشوياب الثالث إلى البطريرك سمعان، زميله في المجمع، بعد الفتح

---

[29] - سورة المائدة، الآية : 83.

[30] - كونستانس جيورجيو : **"نظرة جديدة في سيرة رسول الله"**، ص : 372.

[31] - آتيين دينيه : **"أشعة خاصة بنور الإسلام"**، ص : 18 – 19 .

المنارة للاستشارات

الإسلامي وجاء فيه : "ها ! إن العرب الذين منحهم الرب سلطة العالم وقيادة الأرض أصبحوا عندنا، ومع ذلك نراهم لا يعرضون للنصرانية بسوء، فهم يساعدوننا، ويشجعوننا على الاحتفاظ بمعتقداتنا، وإنهم ليجلون الرهبان والقديسين !".."[32].

وفي ذلك يقول روبرتسون : "إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الجهاد والتسامح نحو إتباع الأديان الأخرى الذين غلبوهم وتركوهم أحرارا في إقامة شعائرهم الدينية"[33].

وكان لهذا التسامح أثره في أن يصبح الدين الإسلامي ديناً عالمياً، بدءاً من مراحله الأولى أيام الرسول في جزيرة العرب إلى أن عم أماكن شاسعة، يقول العلامة جولد تسهير: "سار الإسلام لكي يصبح قوة عالمية على سياسة بارعة، ففي العصور الأولى لم يكن اعتناقه أمراً محتوماً فإن المؤمنين بمذاهب التوحيد أو الذين يستمدون شرائعهم من كتب منزلة كاليهود والنصارى والزرادشتية كان في وسعهم متى دفعوا [الاشتراك السنوي للدولة - الجزية] أن يتمتعوا بحرية الشعائر وحماية الدولة الإسلامية، ولم يكن واجب الإسلام أن ينفذ إلى أعماق أرواحهم إنما كان يقصد إلى سيادتهم الخارجية. بل لقد ذهب الإسلام في هذه السياسة إلى حدود بعيدة، ففي الهند مثلاً كانت الشعائر القديمة تقام في الهياكل و المعابد في ظل الحكم الإسلامي !"[34].

لقد أثارت مبادئ التسامح الديني وحرية الاعتقاد في الإسلام فيما أثارته احترام المفكرين والعلماء والمستشرقين المنصفين من الغرب وكذلك الكتاب والباحثين العرب النصارى، فقد تطرق **"يوسف نعيم عرافة"** في خطبة له في مناسبة المولد النبوي عام 1346هـ 1927م ، إلى معاهدة الرسول مع أصحاب الديانات الأخرى، لاسيما المسيحيين منهم، فيقول : "إن محمداً صلى الله عليه وسلم هو باني أساس المحبة والإخاء بيننا، فقد كان يحب المسيحيين ويحميهم، من

---

[32]- محمد أمين حسن : **"خصائص الدعوة الإسلامية"**، ص : 166

[33]- شوقي أبو خليل: **"الإسلام في قفص الاتهام"**، 125

[34]- محمد أبو فارس : **"النظام السياسي في الإسلام"**، ص 21

المنارة للاستشارات

ذلك : ما قام به في السنة السادسة بعد الهجرة، حيث عاهد الرهبان خاصة والمسيحيين عامة، على أن يدفع عنهم الأذى، ويحمي كنائسهم وعلى أن لا يتعدى على أحد من أساقفتهم ولا يجبر أحداً على ترك دينه، وأن يُمدوا بالمساعدة لإصلاح دينهم وأديرتهم ، كما أن القرآن نطق بمحبة المسيحيين للمسلمين وبمودتهم لهم ، وإن الآية الشريفة:[لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ] [35]، لتبعث على شد أواصر الصداقة بين الطرفين، بل حتى مع الشعب الإسرائيلي في أكثر الأوقات، إننا لنعلم أن ما أتى به الرسل موسى وعيسى ومحمد [عليهم والصلاة والسلام] ما هو إلا لإصلاح العالم لا لإفساده وخرابه، وما الكتب الثلاثة المنزلة إلا نور صادر من بؤرة واحدة ينعكس نورها في ثلاثة أشعة، كل منها للبشر»[36]

هذا، ومن أهم النصوص الإسلامية في التسامح الديني وحرية الاعتقاد .. قول الحق تبارك وتعالى : [لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] [37] .

يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله - في ظلال هذه الآية : «إن قضية العقيدة - كما جاء بها هذا الدين - قضية اقتناع بعد البيان والإدراك؛ وليست

---

[35]- سورة المائدة :الآية 82، والاستشهاد للباحث النصراني يوسف نعيم عرافة.

[36]- انظر : محمد شريف الشيباني : **"الرسول في الدراسات الإستشراقية المنصفة"** 110.

[37]- سورة البقرة، الآية: 256.

المنارة للاستشارات

قضية إكراه وغصب وإجبار. ولقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته. يخاطب العقل المفكر، والبداهة الناطقة، ويخاطب الوجدان المنفعل، كما يخاطب الفطرة المستكنة. يخاطب الكيان البشري كله، والإدراك البشري بكل جوانبه؛ في غير قهر حتى بالخارقة المادية التي قد تلجئ مشاهدها الجاء إلى الإذعان، ولكن وعيه لا يتدبرها وإدراكه لا يتعقلها لأنها فوق الوعي والإدراك ... فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المتعسفة وهي تفرض فرضاً بسلطان الدولة؛ ولا يسمح لمن يخالفها بالحياة؟!>>[38].

ومما تقدّم، تبيّن أن قيمة التسامح الديني تتمثّل في كونه يُقرّ الاختلاف ويقبل التنوّع ويعترف بالتغاير ويحترم ما يميز الأفراد من معطيات نفسية ووجدانية وعقلية ومخيال، ويقدر ما يختص به كل شعب من مكونات ثقافية امتزج فيها قديم ماضيه بجديد حاضره ورؤية مستقبله، هي سبب وجوده وسرّ بقائه وعنوان هويته ومَبعث اعتزازه.

[38]- سيد قطب: **"في ظلال القرآن"**، المجلد الأول، تفسير الآية 256 من سورة البقرة.

المنارة للاستشارات